

(١)

### سبل تقدم الأمم ودور الفرد فيها

الحمد لله الذي جعل بناء الأوطان من أهم مقاصد الأديان ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأسأله أن يرزقنا الأمن والاطمئنان وسعة الرزق في أوطاننا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، القائل في حديثه الشريف : ( عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ ، عَيْنُ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنُ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، **وبعد :**

فإن لكل أمة من الأمم أسساً وركائز تسير عليها ، وتأخذ بها حتى تكون أمة قوية متماسكة ، متقدمة في مصاف الأمم ، وذلك من خلال البناء والتعمير ، فهما عصب الحياة وسبيل من أهم سبل تقدم الأمم والمجتمعات ، فأمتنا أمة عمل لا أمة كسل ، أمة بناء لا أمة هدم أو تخريب ، أمة حضارة وعمران .

وندرک أن الأمم لا تُبنى بالكلام ولا بالشعارات ، إنما تبنى بالعلم ، والعمل ، والتضحية ، ومن أهم سبل بناء الأمم وتقدمها :

\* **العلم** ، إذ لا يتصور أن تقوم أمة ولا تنهض ولا تتقدم بغير العلم ، فالعلم هو القوة الدافعة للأمم نحو التقدم ، وهو الأداة القوية التي تبنى بها الحضارات ، وقد أشاد الإسلام بفضل العلم وحث على تحصيله وطلبه ، وأعلى من شأنه ومكانته ، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} ، وكذلك حث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم ورغب فيه بمرغبات عديدة ، فقال: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ

(٢)

الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِمَطْلَبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ،  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ  
الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا  
دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّهِ وَافِرٍ) .

وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت  
بالقراءة وهي مفتاح العلم ، ونوّهت بالقلم وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله  
تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \*  
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على  
أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، كما قال ربنا في كتابه : {قُلْ هَلْ  
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} .

على أن العلم النافع هو العلم الذي يأخذ بأيدينا إلى التقدم في جميع مجالات  
الحياة ، من الطب ، والهندسة ، والصيدلة ، والزراعة ، والصناعة ، وغير ذلك من سائر  
العلوم والمعارف التي نحتاجها سواء في شؤون ديننا وشؤون دنيانا .

والواقع خير شاهد على أن الأمم والدول التي اعتمدت العلم سبيلاً لنهضتها  
صارت في مقدمة الأمم ، وأن غيرها ممن تقاعست بقيت في مؤخرة الأمم ، فما فشا  
الجهل في أمة إلا هدم أركانها ، وصدّع بنيانها ، وأوقعها في التهلكة ، والله در سيدنا  
عليّ (رضي الله عنه) حين قال : العلم خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس  
المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق .

\* **ومن سبل بناء الأمم: العمل والإتقان** ، فقد نظر الإسلام إلى العمل الجاد  
نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدره وقيّمته وجعله سبيلاً للرفي والتقدم ، وعبادةً يثاب

(٣)

عليها فاعلها ، ولأهمية العمل من أجل البناء والتعمير جاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بنصوص كثيرة تحث على الجِدِّ والاجتهاد ، والعمل والبناء ، وترك الخمول والكسل ، فأمر القرآن بالانتشار في الأرض طلباً للرزق الحلال بعد الأمر بالصلاة ، يقول تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ..}، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَّفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَأَنْتَ تَشَرُّتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

وكذلك بينت السنة النبوية أن العمل سبيل لحفظ ماء الوجه والرفعة والعزة والكرامة الإنسانية ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ) ، وكان سفيان الثوري (رحمه الله) يمرُّ ببعض الناس وهم جلوسٌ بالمسجدِ الحرام ، فيقول: ما يُجْلِسُكُمْ؟ قالوا: فما نصنع؟! قال: اطلبوا من فضلِ الله ، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين .

ولم يكتفِ الإسلام بمجرد الدعوة إلى العمل كسبيل للبناء فحسب ، بل دعا أيضاً لإتقان العمل وإحسانه ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ، وَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) ، فالإتقان في العمل من أهم القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام ، فهو أساس نهضة الأمة ، به يعلو شأنها ، وبه يكون بناؤها بناءً قوياً شامخاً .

\* **ومنها: الإبداع والابتكار**، فهما المعيار الذي يقاس به تقدم الأمم وتأخرها ، حيث أصبحت الابتكارات العلمية القائمة على المنهجية الصحيحة من الأمور التي

(٤)

تُسهم بشكل كبير في رقي المجتمع وتقدّم الأمة ، وتعمل على تطويرها ، ورفعة تنميتها ، بما يعود عليها بالنفع والازدهار ، كما تُسهم في رفع الكفاءة الإنتاجية ، بما يعود بالفائدة على الاقتصاد القومي .

وقد حث الإسلام على ضرورة الإبداع والابتكار كسبب من أسباب بناء الأمم والأوطان ، والسبيل إلى ذلك هو إعمال العقول ، والخروج من دائرة الجمود والتقليد إلى دائرة الإبداع والابتكار في جميع المجالات التي تحقق التقدم والرقي والازدهار ، فالمتبع للبيان القرآني يلاحظ باستمرار الحز على التفكير وإعمال العقل بصيغ متعددة في صور مترادفة ، نحو {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ، {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} ، {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وغير ذلك ، مما يؤكد الدعوة إلى الإبداع والابتكار .

وقد دعا القرآن الكريم إلى إعمال العقل في التفكير والتأمل في ظواهر الكون للوقوف على عظمته سبحانه وتعالى ووحدانيته ، فقال تعالى : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

ولما نزل قوله تعالى : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} قال (صلى الله عليه وسلم) : (وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا) .

**أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**

\* \* \*

(٥)

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

### إخوة الإسلام :

\* **ومن سبيل بناء الأمم : العدل وتكافؤ الفرص ، فالعدل من أهم دعائم المجتمعات ووسائل استقرارها ، فلا استقرار ، ولا نهضة ولا رقي ، ولا تقدم ولا ازدهار إلا بتحقيق العدل وتكافؤ الفرص وتقديم أصحاب الكفاءات في جميع المجالات .**  
ولا شك أن الأمم والشعوب التي يتقدم فيها أهل الولاء على أهل الكفاءة لا يمكن أن تنهض من كبوتها أو عثرتها ، أو تشق طريقها نحو التقدم والازدهار ، فلا بد من توفر العلم والكفاءة والأمانة معاً ، يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان يوسف (عليه السلام) : { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } ، ويقول سبحانه على لسان ابنة شعيب (عليه السلام) في شأن موسى (عليه السلام) : { يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } .

ولقد رسّخ الإسلام قيمة العدل بين سائر البشر ، ليشمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز ، ودون محاباة لأحدٍ على حساب أحد ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } ، وقال سبحانه : { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ، فالعدل أساس الملك ، وطريق سعادة الأمم ، وسبب بقائها ودوامها ؛ ولهذا قيل : (إنَّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً ، ويخذلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً) ، وقيل أيضاً : الدولُ تدومُ مع الكفر والعدل ولا تدومُ مع الإيمان والظلم .

والمقصود بالعدل هنا هو تحقيق العدل الشامل في جميع جوانبه ، وقد قالوا :  
 إِنَّ الْعَدْلَ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي وَضَعَهُ لِلخَلْقِ ، وَنَصَبَهُ لِلْحَقِّ فَلَا تَخَالَفُهُ فِي مِيزَانِهِ ، وَلَا  
 تَعَارُضُهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَكُتِبَ سَيِّدُنَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ (رَضِيَ  
 اللَّهُ عَنْهُمَا) رِسَالَةً هَامَةً ، جَاءَ فِيهَا : " آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ  
 حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يِيَّاسٌ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ " ، ويقول نبينا (صلى  
 الله عليه وسلم) : (مَنْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ ، وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى اللَّهُ مِنْهُ ، فَقَدْ  
 خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ  
 عَشْرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا آتَى اللَّهُ مَعْلُومًا ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ ، فَكَهْ يَرُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ  
 ائْتُمُهُ) .

\* **ومنها : التضحية في سبيل الوطن** ، فحب الوطن لا يتوقف عند مجرد  
 المشاعر والعواطف فحسب ، بل يجب أن يترجم إلى عمل وسلوك صالح نافع للفرد  
 والمجتمع ، ومن ثم فلا بد من التضحية لأجل بقائه قويًا عزيزًا ، فالانتماء للوطن  
 يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ، وأن يسهموا بقوة  
 في نهضته بالعلم والعمل والإنتاج .

على أن للتضحية من أجل الأوطان صورًا متعددة ، منها : التضحية بالنفس ،  
 وهي أعلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان ، فحراسة الأوطان  
 والدفاع عنها من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل) ، حيث قال (صلى الله عليه  
 وسلم) : (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ) ، ومنها : التضحية بالمال ، وهو أمر ليس بالسهل الميسور ، بل هو صعب  
 على أكثر الناس ؛ لذا كان بذله نوعًا من التضحية والعطاء ، قال تعالى : {وَأَنْفِقُوا فِي

(٧)

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ، وقال سبحانه: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} .

والتضحية من أجل الأوطان لا تنحصر في بذل النفس والمال فقط ، بل تشمل كل مجالات التضحية بالجهد أو بالفكر أو بالوقت ، لتشمل التضحية كل أنواع الخير ، من أجل نشر العلم وبناء الأمة وصناعة القادة والعظماء ، وكذلك التضحية بالوقت والجهد؛ لقضاء حوائج الناس والصلح بينهم ، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} .

فحري بكل فرد من أفراد الأمة أن يعمل من أجل رفعة أمته ، والسعي الجاد لبناء مجتمعه ، والعمل على رقيّه وازدهاره ، فكل الأمم التي تقدمت علمياً وحضارياً يقف وراءها رجال مخلصون امتلأت قلوبهم بحب أوطانهم ، فشمروا عن ساعد الجد بالعمل المثمر العائد بالنفع على العباد والبلاد .

اللهم آمنا في أوطاننا ، واحفظ مصرنا من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .